فترة العاصفة والاندفاع في الادب الالماني

Sturm und Drang

د. وائل تقي عبدالهادي
كلية الآداب / جامعة بغداد

انفرد الادب الالماني خلال القرن الثامن عشر بحركة ادبية لها خصوصيتها المميزة يدل عليها الاسم الغريب والمثير للانتباه الذي يطلق عليها . وقد استأثرت تلك الحركة باهتمام ودراسات العديد من مؤرخي الادب في العالم . ونظرا لكون القرن الثامن عشر أهم القرون التي بدأ فيها تأثير الحضارة العربية على الفكر الاوربي واضحا ، فانه من الواجب تقديم نبذة عن ماهية الحركة الادبية في هذه الفترة للقارىء العربي .

قبل البدء في بحث « العاصفة والاندفاع » لابد من القاء نظرة موجزة على عصر التنوير وأهم دوافعه ، وذلك لانها ـ أي العاصفة والاندفاع ـ تعد جزءا متمما له ، ولانها ظهرت خلاله .

كانت المانيا مع اطلالة القرن الثامن عشر تعج بأفكار التنوير الوافدة اليها من انكلترا وفرنسا والتي استهدفت قبل كل شيء تحرير الفكر الاوربي من النظرة الكنسية الضيقة التي كانت تعتبر اساس الفكر والعلوم وذلك لانها أصبحت عائقا أمام التطور الذي اخذت تشهده اوربا في كافة المجالات .

وانطلاقا من ذلك أصبح شعار هذه المرحلة « تحكيم العقل » في معالجة كافة الامور الدينية والدنيوية وهذا يعني بشكل أو بآخر « الانطلاق الحر للشخصية الانسانية »[1] .

---

(١) من محاضرة للبروفسور (Höhle) القاها في كلية الآداب ـ جامعة بغداد تحت عنوان « لسنك والعرب والاسلام » .

نتيجة لذلك تغير الكثير من المفاهيم والمعتقدات المتوارثة وبلغت الجرأة برواد عصر التنوير حد التشكيك بمعتقدات الكنيسة الاساسية بما فيها الثالوث المقدس واعتقادهم بالوجدانية وكان على رأس من قادة هذه الحملة اديب الكبير فولتير (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) الذي بقي مصرا على رأيه حتى الرمق الاخير رغم ضغوط الكنيسة وتهديدها بعدم السماح بدفنه في مقابر المسيحيين .

أما في المانيا دعا لسنك Lessing (١٧٢٩ــ١٧٨١) الذي ينظر اليه على انه من اكبر المعبرين عن حركة التنوير الى التسامح الديني ومساواة الاديان الثلاثة في مسرحيته « ناتان الحكيم » وتعتبر هذه الدعوة بحد ذاتها تحديا كبيرا لافكار الكنيسة ورفضا للتعصب الديني الذي استغل من قبل الكنيسة ابشع استغلال خلال حروب الاندلس والحروب الصليبية ولم تكن قناعته قد جاءت اعتباطا وانما أتت نتيجة اطلاعه على مكنونات الدين الاسلامي[٢] ، الامر الذي حدا به الى اتخاذ موقف المدافع المنصف عن الدين الاسلامي وذلك في مقالات نشرها في الخمسينات من ذلك القرن وكان من البديهي أن تتضمن تلك المقالات تثمينا ايجابيا لدور العرب الحضاري ، وذلك للترابط الوثيق بين كلمتي الاسلام والعرب لدى المثقفين الاوربيين وان كان هنالك البعض ممن يضع العثمانيين ضمن العرب .

تعطي كتابات لسنك مؤشرا لادراك الادباء الالمان ما للحضارة العربية ــ التي يسر لها الدين الاسلامي سبل التطور ــ من شأن كبير وعطاء لاينضب سواء في مجال العلوم او الآداب . وليس أدل على اعجاب الالمان بالادب العربي من ترجمة كتاب حي بن يقظان لابن طفيل عام ١٧٢٦ الى الالمانية[٣] ، وقد أثار هذا العمل الادبي الفذ بالذات اهتمامهم لاحتوائه على أفكار جريئة تتماشى مع أفكار عصر التنوير الى حد بعيد .

---

(٢) قام لسنك بترجمة كتاب « العرب تحت حكم الخلفاء » لـ (Abbé Marny) من الفرنسية . المصدر نفسه .

(٣) ص ١٠ Texte und Kontexte P. 10

لقد انصب اهتمام مفكري التنوير على دراسة الفلسفة الاغريقية التي نقلها لهم الفلاسفة العرب ، وانطلاقا من تحررهم من النظرة الدينية الضيقة فانهم ابدوا تحيزا واضحا الى الفلسفة المادية ، ووجدوا ضالتهم في أفكار الفيلسوف الهولندي اليهودي سبينوزا التي كانت محرمة انذاك[٤] والتي تنادي بوحدة الوجود وهي أفكار سبق لفلاسفة العرب ان جاهروا بها قبل اكثر من ستة قرون من ذلك الوقت . يبدو مما تقدم ان هنالك تشابها كبيرا في اتجوه الفكري الاوربي في القرن الثامن عشر والحركة الفكرية العربية في القرن الحادي عشر والثاني عشر ، والتي وصفها أحد الكتاب الاوربيين بأنها « انسانية حرة سواء في المدن أو القصور ، جريئة ، لا تعرف الخوف ، كما هو الحال في القرن الثامن عشر[٥] .

وفي المجال السياسي كان الانحياز للفلسفة المادية والوقوف ضد الكنيسة يحمل في طياته توجها ضد السلطة الاستبدادية المتحكمة ، ذلك لان الكنيسة كانت أهم دعامات السلطة ومن تعاليمها استمد الحكام سلطانهم وعلى هـــذا الاساس كانت الفلسفة المادية تمثل ــ بالنسبة لمفكري التنوير ــ بديلا لتعاليم الكنيسة «كانت فلسفة الطبيعة التي ترفض النظرة المسيحية المتشائمة ترمي الى ان الانسان بسيطرته على الطبيعة يتمكن من تغيير العلاقات الاجتماعية بما يلائم احتياجاته»[٦] . تجاه ضعف موقف الكنيسة تضعضعت اهم ركائز السلطة السياسية واصبحت تبعا لذلك عرضة لحملة انتقاد ادبية مباشـــرة من ادباء التنوير ، حاولوا خلالها تبيان معايب الحكم الاستبدادي وعدم ملائمته التطور الفكري والاجتماعي الاوربي وكذلك ارشاد الحكام الى الطرق القويـــم للحكم .

---

(٤) ص ١٠٣٢ Philosophisches Wöterbuch Bnd II P. 1032

(٥) ص ١٦ Ley, Geschichte der Aufklärung

(٦) المصدر نفسه ص ١٥ .

استند ادباء التنوير في تصورهم لما يجب ان يكون عليه الشكل السياسي للبلاد على فلاسفة الاغريق اكثر من غيرهم ، وقد اختص فيلاند (Wieland) (١٧٣٣ ــ ١٨١٣) بمعالجة هذه الناحية وذلك في قصتي « اكاتون » و «ملوك شيشيان » التي عرض فيهما صفات الحاكم الصالح والمدينة المثلى • أما بالنسبة الى نظرة ادباء التنوير للانسان والمجتمع فانهم لم يعيروا حياة الفرد ومشاكله الشخصية اهتماما كبيرا وذلك لانهم كانوا « يعالجونها من خلال النظم والقواعد الاجتماعية المتعارف عليها »[٧] •

بذل رواد عصر التنوير جهودا كبيرة في سبيل تطوير اللغة الالمانية ورفع مستواها الادبي وكذلك في التأكيد على اهمية المسرح الالماني كما انهم نقلوا روائع الادب العالمي الى اللغة الالمانية كمسرحيات شكسبير وقصص الف ليلة وليله وألفوا كتبا عن الحضارتين الاغريقية والرومانية •

بقيت هذه الحركة الادبيةالتي تزعمها لسنك وفيلاند والشاعر كلوبشتوك (Klopstock) (١٧٢٤ ــ ١٨٠٣) مهيمنة على النشاط الفكري والادبي في المانيا حتى السبعينات من القرن الثامن عبر بالرغم من ظهور انتقاد شمل اسلوب معالجتها للامور السياسية بدأ في منتصف ذلك القرن ، اذ أن مسرحيات لسنك وكتاباته ومواعظ فيلاند ونصائحه لم تكن لتجدي نفعا مع السلطة الاستبدادية التي اخذت تتمادى في طغيانها ، ولم تتوان عن استغلال الشعب باستخدام ابشع الاساليب في سبيل مصالحها الخاصة وزيادة اموالها ، كبيعها الجنود الالمان الى انكلترة لاستخدامهم ضد حركة الاستقلال في امريكا الامر الذي أثار موجة سخط كبيرة بين جماهير الشعب[٨] •

---

(٧) Schneider-Die deutsche Dichtung in der Geniezeit ص ٧ .

(٨) « باعت السلطات الاستبدادية الالمانية انكلترة ٢٩١٦٦ جندي مقابل مايعادل ١٠ ملايين دينار ذهب وقد سقط منهم خلال المعارك في امريكا ١١٨٥٣ جنديا . تعرض الاديب الالماني شيلر الى هذه الحادثة بصورة عرضية في مسرحيته « دسيسة وحب » التي سيأتي ذكرها فيما بعد .

تناولت جملة الانتقادات التي وجهت الى ادباء التنوير جمودهم المتأتي من وضعهم « التعقل فوق كل اعتبار »[٩] وكذلك الفصل بين الشعور والواقع وهذا ما لم يتقبله الفكر الجديد المتأثر بآراء المفكر الفرنسي جان جاك روسو التي وضعت « الشعور فوق مرتبة التعقل »[١٠] .

كان على رأس المنتقدين لاسلوب التنوير كل من المفكرين هامان Hamann (١٧٣٣ــ١٧٨٨) وهيردر Herder (١٧٤٤ــ١٨٠٣) اللذين دعيا الى اعتبار «العالم والحياة وحدة متكاملة لا يمكن فصلها »[١١] والى « سيطرة المشاعر بواسطة اللغة التي اعتبرها هامان واسطة بين عالم الروح والعالم المحسوس[١٢] كما انهما كانا متأثرين الى ابعد الحدود بأفكار روسو ، وكتاباته .

كانت عظمة هذين المفكرين تكمن في سعة اطلاعهما على مختلف العلوم شرقية كانت أم غربية[١٣] ، بضمنها الدين الاسلامي وبأنهما كانا يعبران عما تختلج به صدورهما من أفكار حية بجرأة متناهية كان لها أكبر الاثر على الادباء الشبان مثل كوته (Goethe) الذي أصبح فيما بعد أعظم ادباء المانيا .

كان عمر كوته عند لقائه الاول بهيردر عام ١٨٧٠ لا يتجاوز الحادية والعشرين وقد تم ذلك اللقاء في مدينة شتراسبورك الواقعة تحت حكم فرنسا حيث أعجب الاديب الشاب بمنطق هيردر اعجابا شديدا تنم عليه احدى رسائله التي كتبها بعد عامين من حيث يقول « لا يمضي يوم بدون ان اتحادث مع شخصكم واتمنى لو انني تمكنت من العيش بجانبكم دوما »[١٤] وقد تضمنت

---

(٩) ص ١٩٢ Deutsche Literaturgeschichte in einem Band

(١٠) المصدر نفسه .

(١١) ص ١٤٤ Hunger - Deutsche literaturgeschichte

(١٢) ص ٦٤ Schneider - Die deutsche Dichtung in der Geniezeit

(١٣) كتب هيردر في احدى رسائله بتاريخ ٢٨ــ١٠ــ١٧٧٠ : لقد رميت بنفسي هذه الايام بشدة بين اليهود والعرب المصريين والاحباش والسوريين والسامريين ، ص ٢٧٠ (Heder Briefe p. 270)

(١٤) ص ٤٢٣ CH Beck-Sturm und Drang, Klassik, Romantik I p. 423

الرسالة كذلك آراء كوته تجاه ما أشار عليه هيردر من الاهتمام بدراسة هوميروس ـ شاعر الالياذة ـ والاديب الانكليزي شكسبير . كانت مسألة الاقتداء بهذين الاديبين قد اثارت جدلا فكريا في اوربا نظرا لان الاعجاب الشديد بهذين الاديبين أخذ يقود بالتالي الى تقليد اعمالهما وقد كتب الاديب الانكليزي يونك (Young) بل ذلك في احدى رسائله « لاتقلوا كتابته ـ مشيرا الى هوميروس ـ بل قلدوا روحه !»[١٥] ، وانطلاقا من ذلك فقد اعتبر هوميروس وشكسبير من فلتات الطبيعة ورمزا للعبقرية التي أصبحت ـ خلال السبعينات ـ مرادفة لكلمة القوى المبدعة خلافا لما كانت تدل عليه خلال الستينات وهو للتفريق بين المقلد والاصيل .

أصبح منطلق الادباء الشباب تبعا لذلك النظرية المطروحة آنذاك من قبل الاديب والمفكر الفرنسي جان جاك روسو بأن « العبقرية موهبة طبيعية لدى بعض الناس وكان الغرض من هذه النظرية تخطي حدود سيطرة العلماء وقوانينهم »[١٦] .

وقد أدى ذلك الى ظهور نزعة الاعتداد بالنفس والنبوغ لدى الادباء الجدد الذين عبروا عن ذلك في كتاباتهم التي تميزت « بعرض سريع لافكارهم بدون تردد أو مراجعة ورفض التقاليد او التقيد بالقواعد الادبية المتعارف عليها وقد بلغت ابعاد الاندفاع حد قدم تقبل كلام النقاد»[١٧] .

ان التحول في ادراك مفهوم الادب من كونه «انجاز للمثقفين الى اعتباره موهبة طبيعية ادى الى أن يتوجه الادباء الجدد في كتاباتهم الى الناس كافة»[١٨] بغض النظر عن مستوياتهم الفكرية أو الاقتصادية عن طريق ادخال كلمات شائعة الا انها لا تمت الى الاعراف الادبية المعتادة بصلة وذلك لاعتقاد

---

(١٥) المصدر نفسه

(١٦) Schneider-Die deutsche Dichtung in der Geniezeit p. 17 ص ١٧

(١٧) المصدر نفسه ص ٢٢ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧ .

هؤلاء الادباء بأن مهمة الادب في هذه المرحلة هو التغلغل في نفس القارىء أو المشاهد واثارته بشتى السبل .

كانت هذه أهم النقاط التي لعبت دورا كبيرا عند تأليف كوته لمسرحيته الأولى بعنوان (Götz von Berlichingen) التي ظهرت عام ١٧٧١ أي بعد فترة وجيزة من لقاء كوته بهيردر .

مع صدور هذه المسرحية بدأت مرحلة جديدة من عصر التنوير اتسمت بالحيوية والاندفاع لم يشهد مثلها الادب الالماني من قبل وقد اطلق كوته على هذه المرحلة الادبية « الثورة الادبية » . اما اسم « العاصفة والاندفاع» الذي يطلق عليها كذلك فهو نسبة الى عنوان مسرحية ظهرت عام ١٧٧٦ للكاتب مكسمليان كلنكر (Klinger) [١٩] .

حازت مسرحية كوته الاولى على اعجاب المشاهدين وسببت لكاتبها شهرة واسعة في المانيا بالرغم من انتقاد هيردر الذي كتب الى كوته يقول « لقد حطمك شكسبير»[٢٠] لان كوته وضع مسرحيته على غرار مسرحيات شكسبير التي تميزت بسرعة تغيير المشاهد . كما ان كوته اقتبس موضوعها من تأريخ المانيا خلال ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥ أما الشيء الجديد في هذه المسرحية فهو لغتها المبسطة واستعمال كلمات نابية ــ بالمفهوم العام ــ ضد السلطة لم تعهدها المسارح الالمانية من قبل وكذلك الكفاح في سبيل الحق والعدالة المتمثل في شخص بطل المسرحية الاقطاعي « كوتز » الذي يتعاطف مع الفلاحين الثائرين بالرغم من منزلته ويتودهم في نضالهم ضد السلطة المستغلة وضد رجال الدين الى ان يقع اسيرا في يد اعدائه .

وفي عام ١٧٧٣ وضع كوته مسودة لعمل ادبي سماه « اناشيد محمد » احتوى على اروع قصائده التي يصور فيها « عظمة النبي محمد وروحه

---

(١٩) ص ٤٧١ Annalen der deutschen Literatur p. 471

(٢٠) C.H. Beck-Sturm und Drang, Klassik, Romantik p. 423.

المتطلعة الى الكمال»[٢١] على شكل تيار يجرف معه كل المياه ويقودها الى المحيط .

ان اعجاب كوته الشديد بشخصية محمد تعود الى اطلاعه على القرآن الكريم الذي اقتبس منه بعض السور وضمنها قصيدته الرائعة هذه كما انه كان يستشهد بسور من القرآن ففي احدى رسائله الى هيردر عام ١٧٧٢ يذكر كوته« ان حالي كمال قال موسى في القرآن «ربي اشرح لي صدري»[٢٢] . لا بد هنا من ملاحظة نقطة مهمة وهي ان اعجاب كوته بالقرآن كان بتأثير من هيردر الذي كتب في احدى رسائله في بداية عام ١٧٧١ اي أثناء تواجد كوته معه مبديا أسباب اعجابه بقصيدة نشرت في احدى الجرائد السويسرية « لانها تحتوي على شجاعة محمدية منزلة من السماء»[٢٣] .

حصل كوته على شهرة في اوربا وفي فرنسا بالخصوص خلال مؤلفه «آلام الشاب فيرتر» الذي صدر عام ١٧٧٤ وقد تميز بوصف دقيق للمشاعر الجياشة التي زخرت بها صدور شباب تلك الفترة ورفض العلاقات الاجتماعية التي تعرضها رسائل فيرتر الذي يدفعه حبه الى زوجة صديقه الى الانتحار ليضمن لها السعادة وليتخلص من آلامه وما يلاقيه من عذاب .

بدأ كوته في هذه المرحلة كتابة مسرحية فاوست وكان غرض كوته هو اطلاق العنان لمخيلته من خلال شخصية فاوست الناقم على العلوم المتداولة والتطلع الى العلوم الحقة والمعرفة ويدفعه ذلك الى محاولة الاتصال بقوى ماوراء الطبيعة بواسطة السحر . وفي قصيدته الشهيرة (Prometheos) «يرفع كوته المقدرة البشرية الى مرتبة الالوهية»[٢٤] .

---

(٢١) ص ١٨٥ Schneider-Die deutsche Dichtung in der Geniezeit p. 185

(٢٢) ص ٢٣ C.H. Beck-Sturm und Drang, Klassik, Romantik p. 423

(٢٣) ص ٢٩٥ Herder Brief p. 295.

(٢٤) ص ١٩٠ Schneider—Die deutsche Dichtung in der Geniezeit p. 190

اما في مقطوعته الادبية (Egmont) التي تدور حوادثها حول حركة الاستقلال الهولندية من نير الحكم الاسباني فتظهر ولاول مرة في الادب الالماني عبارة « آلهة الحرية » .

تظهر أعمال كوته الادبية تعلقا شديدا بالطبيعة تصل ذروتها في عبارة « اهدني ايتها الطبيعة » التي حلت محل « اهدني أيها الرب » وهذا يبين تأثر كوته بأفكار سبينوزا التي سبق ذكرها . والتي تعرضت لانتقاد الفيلسوف الالماني كانت الذي قال «تتعرف على الطبيعة عندما تصنعها»[٢٥] .

بعد نيف وعشر سنوات من قيام كوته بحركته الادبية أي في عام ١٧٨١ ظهرت مسرحية جديدة لاديب شاب يدعى شلر (Schiller) استحوذت على «اعجاب جمهور المشاهدين الى درجة نسي فيها نفسه»[٢٦] وسبب هياجه الامر الذي دعا السلطة الاستبدادية الحاكمة الى منع عرض المسرحية وملاحقة مؤلفها الذي اضطر الى الهرب من المقاطعة .

كان الشيء الذي أثار حفيظة المشاهدين الكلمات القاسية والمؤثرة ضد الاستبداد والتي اظهرته على حقيقته حيث يقول فرانز الذي يمثل الاستبداد بكل معانيه لفلاحي مقاطعته : « ان احب الالوان لدي هو شحوب الفقر وخوف العبيد ، والويل لمن يمر امام عيني بخدود وردية » .

يهب أخ فرانز وهو كارل بالوقوف امام جيش أخيه وطغيانه ويتعرض لذلك لمؤامرات فرانز الذي يستطيع من خلالها أن يوغر صدر ابيه ضد كارل فيضطر هذا للهرب ويتزعم عصابة من اللصوص هدفه من ذلك الدفاع عن الحق واغاثة المظلومين فكان يقتل الحكام الظالمين ويسلب اموال الاغنياء الجشعين ويوزعها على الفقراء والمحتاجين الا ان مثاليته تقوده للاصطدام مع افراد عصابته التي كانت السرقة بالنسبة لهم مهنة يتعيشون عليها لذا يضطر الى تسليم نفسه للسلطات ويساق الى الموت .

---

(٢٥) المصدر نفسه ص ٣٦ .

(٢٦) الدكتور غازي شريف : «التغريب في المسرح الالماني» العدد الحادي والعشرين ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد المجلد الثاني ص ١١٥ .

المسرحية الثانية التي عالج شيلر من خلالها مشاكل عصره السياسية والاجتماعية هي مسرحية دسيسه وحب «التي صدرت عام ١٧٨٤ والتي تحكي قصة حب بين ابن الامير وابنة موسيقي ضعيف الحال ولعدم تماشي ذلك مع تقاليد العصر فأن الامير واتباعه يلجأون الى استعمال أساليب دنيئة في سبيل ابعاد الابن فردناند عن ابنة الموسيقي لويزا وتكون نهاية المسرحية هو انتحار فردناند بعد موت لويزا بالسم على يديه وامام هذا المشهد يسقط في يد الامير فيسلم نفسه للعدالة طواعية » .

اهم ما تعرضه هذه المسرحية هو انحطاط وضعة الطبقة الحاكمة الالمانية والمواجهة المباشرة بين فردناند الذي يمثل أمل الطبقات الاجتماعية الجديدة وبين الجيل القديم في شخصية والده كما ان شيلر قد صاغ المسرحية بصورة تجعل المشاهد يعتقد بأنها صورة واقعية لحياة القصور في المانيا[٢٧] . لذا تعتبر هذه المسرحية اروع نتاجات هذه الفترة»[٢٨] .

سار شيلر على منوال كوته في تصويره للكفاح الشعب الهولندي ضد اسبانيا في سبيل نيل حريته وذلك في مسرحيته « دون كارلوس » التي ركز هجومه على استبداد الملك الاسباني فيليب الثاني وعلى محاكم التفتيش ولا انسانيتها » .

اختلف شيلر عن غيره من ادباء العاصفة والاندفاع بجرأته وبكرهه الشديد للسلطة المستبدة وحبه المثالي والثوري للانسانية[٢٩] ، وهذا يرجع الى أن شيلر كان على مساس مباشر بالاستبداد منذ صباه الذي قضاه مجبرا في المدرسة العسكرية التي كانت تخضع لاشراف أمير المقاطعة المباشر وقد تركت هذه الفترة العصيبة من حياته آثارا لا تنسى عبر عنها في كتاباته الادبية .

---

(٢٧) ص ٢٦٦

Schneider-Die deutsche Dichtung in der Geniezeit p. 266.

(٢٨) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(٢٩) ص ١١١

Thomas Mann, über deutsche Literatur (Reclam) p. 111.

هنالك أعمال ادبية اخرى للاديبين كوته وشيلر لم تنل شهرة كبيرة لذا لم يجر ذكرها كما ان الادباء الآخرين الذين ساروا في هذه الفترة على هـذا النهج لم يصبهم مثل ما اصاب كوته وشيلر من شهرة ونجاح اللذان يعتبران مفخرة الادب الالماني حتى يومنا هذا .

ادى ارتباط كوته بمناصب رفيعة في مدينة فايمار التي اصبحت مركزا للاشعاع الادبي في المانيا الى حدوث تغيير تدريجي في اتجاهه الادبي وقـد ارهقته المشاكل الوظيفية والعاطفية في تلك المدينة الى درجة التفكير بالهرب فغادر المانيا متوجها الى ايطاليا عام ١٧٨٦ حيث بقي هناك قرابة الثلاثسنوات بدأ خلالها مرحلة ادبية جديدة هي مرحلة « الكلاسيك » وبعد عودته التقى بشيلر لاول مرة وقد انضم شيلر الى الاتجاه الادبي الجديد اي قبل حدوث الثورة الفرنسية بوقت قصير .